نَظَرِيَّةُ المِثَالِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وتطبيقاتها في العبادات عند الحنفية

أ. م. د. مجيد صالح إبراهيم الكرطاني
كلية الإمام الأعظم / الأنبار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله التواب الذي جعل الجنة دار المآب ، والصلاة والسلام على النبي الأواب الذي دلنا على ما يجزل الثواب ، وعلى آله وصحبه أولي الألباب . وبعد ...

فإن صرح المثالية تتطلع إليه العيون ، وتتمناه القلوب ، وتتدافع نحوه المشاعر ، وتحث نحوه الخطى ، فلا يسلك طريقه إلا الكادحون ولا يتناول سلمه إلا من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وترفع عن النقائص فنهى النفس عن الهوى ، وولى وجهه شطر الصالحات فجنى جناها ، وألف المندوبات وتوشح بحليها . وبذلك يكون قد دنا وتسامى ليكون قاب قوسين أو أدنى ، وليرى من آيات ربه وكراماته الكبرى . ومما تجب الإشارة إليه أن المثالي مهما بلغت مرتبته لا يصل إلى الكمال المطلق لأنه من خصائص الألوهية . وقد طرقت أبواب هذا العلم أملاً في أن أكون من أهله أولاً ، ولأني لم أجد من أحاط به ثانياً ، لذلك اجتهدت محاولاً ركز قواعده وبناء جوانبه ، ولكي أجعله يلامس الواقع العملي فقد جعلت ميدان تطبيقه في الفقه العبادي للمدرسة الحنفية فأسميته (نظرية المثالية الإسلامية وتطبيقاتها الفقهية في العبادات عند الحنفية) وقسمته إلى مقدمة ، وقد أتحفتكم بها ، وفصلين وخاتمة في أهم النتائج .

بحثت في الفصل الأول : بيان حقيقة المثالية ومشروعيتها وقاعدتها وسلمها وغايتها وغاية المثالي ومكانته في المجتمع وزادها والتوازن بينها وبين الواقعية .

وبحثت في الفصل الثاني : تطبيقات المثالية في الفقه العبادي الحنفي .

أما الخاتمة فكانت في أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث ، عسى أن أكون قد وفقت في ذلك وحظيت برضاء الله تعالى ليكون نقطة بيضاء في صحائف أعمالنا يوم نلقاه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

الفصل الأول

بيان حقيقة المثالية ومشروعيتها وقاعدتها وسلمها وزادها

وسنبحث في هذا الفصل تعريف المثالية في اللغة والشرع وبيان أدلة مشروعيتها ووصف قاعدتها وكذلك التعرف على سلم المثالية وغايتها وزادها وذلك في ثلاثة مباحث:-

المبحث الأول

تعريف المثالية ومشروعيتها وقاعدتها وسلمها

لابد لكي نلج في لجة البحث من التطرق إلى المعنى المقصود من عنوان البحث لذلك سنبين معنى النظرية والمثالية ومشروعيتها والقاعدة التي ترتكز عليها ومكونات سلمها وكما يأتي :-

١- تعريف النظرية : هذا المصطلح من المصطلحات التي لم يستخدمها الفقهاء الأولون بل استخدمت حديثاً لذلك سنأتي إلى معناها في اللغة واصطلاح المحدثين :

فالنظرية أصلها من نظر وقد ذكر علماء اللغة لها عدة معانٍ وما يلامس بحثنا منها هي(١):

أ- البصر ، يقال نظرت إليه أي أبصرته .

ب- التدبر ، يقال نظرت في الأمر أي تدبرت .

ج- التنزه ، فالنظارة بالفتح كلمة يستعملها العجم بمعنى التنزه في الرياض والبساتين.

أما في اصطلاح المحدثين : فهي القاعدة الكبرى التي موضوعها كلي تحته موضوعات متشابهة في الأركان والشروط والأحكام العامة(٢).

وهي تمتاز عن القاعدة باتساعها وتحتاج في تكوينها إلى أركان وشروط وأحكام بحيث تشمل جانباً كبيراً من الفقه وتصلح أساساً له وتقسم إلى قسمين(٣):

أ- نظريات عامة : وهي النظريات الأساسية للفقه أو لقسم منه كنظرية العقد والمثالية وغيرها .

ب- نظريات خاصة : وهي المندرجة تحت نظرية من النظريات العامة كنظرية الفسخ والبطلان وغيرها

٢- تعريف المثالية ومشروعيتها :

أ- : تعريف المثالية : لغة : هي جمع مفرده : مثُل ، يقال مثُل الرجل مِثالة (بكسر الميم) : أي صار فاضلاً .

قال إبن بري : المَثالة بفتح الميم : حسن الحال .

والأمثل : الأفضل وهو من أماثلهم وذوي مثالتهم ، ويقال فلان أمثل من فلان أي أفضل منه .

والمثِل يكسر الثاء : الفاضل ، وفي الحديث : أشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل(٤).

فالأمثل : أي الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة .

ويقال : الطريقة المثلى : أي التي هي أشبه بالحق(٥).

أما في الإصطلاح فلم نجد في الكتب الشرعية من تناول هذا المصطلح بالتعريف لكن نجد ذلك في إصطلاحات الفلاسفة وكما يأتي :-

---

(١) المصباح المنير للفيومي : ٢/ ٢٨١-٢٨٢ .

(٢) النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية ، د. أحمد فهمي بهنسي : ص٤٤ .

(٣) المصدر السابق : نفس الإشارة .

(٤) سيأتي تخريج الحديث في أفنية البحث .

(٥) أنظر : المعاني المتقدمة في لسان العرب : ١١/ ٦١٣ .

فالمثالية عند (لالند) هي : الإتجاه الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الفكر بالمعنى الأعم لهذه الكلمة(١).

ويمكن أن نتبين رأي إفلاطون في المثالية من خلال قوله : إن أحط أنواع المعرفة يشارك في الصيرورة والتغير في حين أن أرقاها يتعلق بالوجود الثابت(٢). ومعنى ذلك أنه قال بنوعين من المعرفة :

١- معرفة غير صحيحة : وهي المعرفة المادية التي تأتي عن طريق الحواس وأخص خصائصها التغير .

٢- معرفة صحيحة : وهي المعرفة التي تأتي عن طريق النفس وأخص خصائصها الثبات(٣).

وقد جاءت المثالية الإفلاطونية المفارقة في تمييزه بين عالم الحس وعالم المُثُلْ أي بين عالم الأشياء كما نراها في الواقع وبين عالم المثل أو الأفكار كما تدركها العقول ، وإن الوجود الحقيقي هو وجود المثل المفارقة للأشياء(٤).

وعليه فإن عدم تعريف الفقهاء والعلماء المسلمين للمثالية لا يمنع من وضع تعريف لها يمكن أن نستوحيه من خلال التعريف اللغوي والنصوص الشرعية والأحكام الفقهية لذلك عرفناها بما يأتي : وهي (إجتناب المحضورات والمكروهات والإتيان بالمفروضات والإكثار من المندوبات التي نص عليها الشرع) .

قدمنا (إجتناب المحضورات) على (الإتيان بالطاعات) لأن التخلي قبل التحلي قال تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٥).

وأوجبنا (اجتناب المكروهات) لأن من اعتادها يسهل عليه الوقوع بالمحرمات .

وقلنا بـ(وجوب الإتيان بالمفروضات) لأنها رأس المال إذ تركها يعني ارتكاب المحرمات كما إنها قاعدة المثالي التي يقف عليها وينطلق منها .

وقلنا (الإكثار من المندوبات) لأن درجات المثالية لا تنال إلا بالإكثار منها ، ومن قلل منها نسميه مثالي لكن يفضل المكثر عليه .

وقلنا (التي نص عليها الشرع) لأننا نزن أعمال المثالي بميزان الشرع ومن يخالفها يخرج من أوصاف المثالية .

ب- وأما مشروعيتها فقد وردت هذه الكلمة وبالمعنى المقصود من البحث في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكما يأتي :

أولاً : قال تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ (٦). أي أعدلهم وأشبههم بأهل الحق(٧). قال القرطبي : أي أعدلهم قولاً وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه(٨).

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة د. يحيى هويدي : ص٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق : ص٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ص٢٢٣ .

(٤) مدخل إلى الفلسفة د. حسن عبد الحميد : ص٢٤٨ .

(٥) سورة البقرة : آية (٢٥٦) .

(٦) سورة طه : آية (١٠٤) .

(٧) لسان العرب : ١١/ ٦١٣ .

(٨) له الجامع لأحكام القرآن : ١١/ ١٦٢ .

ثانياً : حديث مصعب بن سعد قال : قال سعد : يا رسول الله أي الناس أشد بلاءاً ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)(١).

٣- قاعدة المثالية وسلمها :

وسنبحث هنا قاعدة المثالية وسلمها وذلك في نقطتين :-

أ- قاعدة المثالية :

المقصود بالقاعدة كما يقول السبكي : قضية كلية يتعرف منها أحكام جزئياتها(٢). فهي أصلٌ تبنى عليه الأحكام الجزئية ، وينبغي أن يكون هذا الأصل متيناً ومعداً لبناء الأعمال الصالحة عليه ، ولكي لا يكون الأصل أو الأساس رافضاً لما يبنى عليه لذلك يجب أن تتكون القاعدة المثالية من أركان الإسلام وهي المنصوص عليها بقوله ﷺ : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً(٣). ويمكن الإستدلال بقوله تعالى :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤).

لكي نتمكن من بناء الصالحات من السنن والنوافل عليها ، ويدعم ما ذكرنا قوله تعالى في الحديث القدسي : ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ... (٥).

ومن الجدير بالذكر أنه ينبغي أن يكون البناء من جنس القاعدة وموافقاً لها لأنها ترفض ما يبنى عليها من البدع ومحدثات الأمور لإفتقارها إلى نص يشرعها . وكذلك ترفض المعاصي لنهي الشارع عنها .

ومما مضى نتبين ملامح قاعدة المثالية وإن مكوناتها هي مجموعة الفرائض والواجبات الشرعية التي يثاب على فعلها ويعاقب على تركها .

ب- سلم المثالية :

لا تنفك النفس الإنسانية من التطلع نحو الدرجات العلا لكن ليس الكل يمتلك الهمة والإرادة العالية التي تدفعه نحوها إلا أنه من سلك سلم المثالية فإنه كلما وصل إلى مرحلة امتطى سلم الأسباب للترحال نحو المرتبة التي فوقها وهكذا يبقى دائماً مشمراً ساعده على الدوام وما ذلك إلا لأن النفس الإنسانية تطمع في التربع فوق قمة المثالية المطلقة والتي لا يمكن للإنسان الوصول إليها لأن الكمال المطلق خاص بالله تعالى لكن ذلك ينبغي أن لا يحول دون مواصلة الإرتقاء في السلم ونيل المراتب العالية .

ويبدو لنا أن سلم المثالية لا يتم الإرتقاء به إلا بتتبع النوافل والسنن والمستحبات التي يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها والتي أتحفتنا بها النصوص الشرعية لنتوشح بها إلتزاماً وتمسكاً كي تكون لنا زاداً لا مناص منه

---

(١) مسند أحمد : ١/ ١٨٠ ، سنن الترمذي : ٤/ ٢٨ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) له جمع الجوامع على حاشية البناني : ١/ ٢١-٢٢ .

(٣) صحيح البخاري : ١/ ٧ ، صحيح مسلم : ١/ ٣٤ .

(٤) سورة الأنفال : آية (٢-٤) .

(٥) صحيح البخاري : ٧/ ١٩٠ .

في الرحلة المثالية . وقد جاء ذكر الدرجات في القرآن الكريم في آيات منها قال تعالى :﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١). وقال أيضاً :﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (٢). وقال أيضاً :﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ (٣).

ومن الجدير بالذكر أن هناك عوائق قد تعترض في طريق السالك لسلم المثالية فتؤدي إلى فتوره وتكاسله ومن ذلك الملل أو الإسترخاء تحت مظلة مرتبة معينة .

كما أن هناك آفةً تعد ناكسةً لا يستهان بها قد يسبب ارتكابها إلى الهبوط من الدرجة التي وصل إليها والتردي إلى درجة أدنى منها أو إلى ما تحت الدرجات وهذه الآفة هي المعاصي . فالمعاصي تؤدي إلى انكسار درجة سلم المرتقى الصاعد التي لم يصل إليها إلا بعد ان تكلف سهر الليالي وتجشم المشاق ساجداً ذاكراً متفكراً وكذلك تحمل ألم الجوع والعطش جراء صيامه النهارات الحارة أو إنفاق الأموال أو غير ذلك من الطاعات .

لكن الإسلام جعل لهذه الهفوة جبراً وعلاجاً ليتمكن من استئناف الرحلة وذلك عن طريق التوبة والاستغفار التي إذا ما خطى أول خطوة فيها بانفعال النفس وعدم رضاها على ذاتها بالندم والحسرة ثم عرف ربه فحرك قواه (لسانه وقلبه) إلى تلاوة صيغة الاستغفار المعروفة فقد استأنف الرحلة وتابع المسيرة ، وهكذا هو حال الإنسان ، لكن المخالفة تتفاوت من حيث كونها صغيرة أو كبيرة ومن حيث درجة صلاح صاحبها فصغائر العامة تعد كبائر الخاصة كما يجب أن لا ننسى القاعدة الشرعية (لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار) .

المبحث الثاني

غاية المثالي ومكانته في المجتمع وزاده

وسنتطرق هنا إلى ثلاثة مواضيع هي :

١- غاية المثالي :

يروم السالك لطريق المثالية الوصول إلى غايتين هما :

أ- جلي مرآة فكره من أدران المعاصي التي تشوهها وتحجب عن صاحبها وضوح الرؤية عند سلوكه طريق الهداية وهو ما عبر عنه حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله﴿كَلَّا بَلْ رَانَ

(١) سورة الأنعام : آية (١٦٥) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٥٣) .

(٣) سورة النساء : آية (٩٥) .

عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

وجه الدلالة : فالحديث يصور لنا مرآة الفكر بأنها كالزجاجة تتشوش الرؤية عندما تتلطخ بالأدران وتتأثر حتى بمجرد مسحها بالأصابع فكذلك الحال بالنسبة لمرآة الفكر فإنها تتأثر بالمعاصي بل وحتى بمجرد التفكير بها كما أن المعاصي تغلق بوجه طالب العلم أبواب الدعم الروحاني الذي هو محتاج إليه وذلك مصداقاً لقوله تعالى﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

لأن الإنسان إذا استطاع نيل درجة التقوى فقد أخذ يسمع ويبصر من خلف الماديات المعهودة لعامة الناس وهو المعبر عنه بقولهﷺ : لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ... (٣).

ب- ضمان مستقبله في الآخرة حتى يلقى الله تعالى وهو عنه راضٍ .

ج- وهناك الصفوة من الناس من غايته فوق مسألة الطمع في احتساب الأجر والثواب لأن معرفته بالله تعالى وكونه الرب المستحق للعبودية متجاوزاً حاله كأجير أو عامل أو عبد مهدد بالعقاب عند المخالفة أي إنه لا يعبد الله تعالى خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته لكن لأنه رب يستحق العبادة .

٣- المثالي والمجتمع :

عندما يتراءى لأنظار الناس شخص قد سلك طريق المثالية بعدما نهض لتقويم سلوكه وتحسين سيرته فإن فطر الناس تتجه نحو مضاعفة وتضخيم ما يصدر عنه من الحسنات والسيئات على حد سواء وذلك من خلال :

أ- تعلق أفئدة الناس به حباً وتوقيراً ويصاحب ذلك جريان عبارات المدح والثناء عليه على ألسنتهم ، وهذا أيضاً يضاعف حسناته عند الله عز وجل بدليل قوله تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ (٤).

ب- مضاعفة عقابه ولومه إذا ما ظهرت منه مخالفة شرعية وذلك بأكثر من العقوبة التي يستحقها سائر الناس إذا ظهرت منهم نفس تلك المخالفة الشرعية . ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن المثالي في المجتمع كالثوب الأبيض الناصع فإذا ما حطت عليه ذبابة أخذ يشار إليه بالبنان استنكاراً واستهجاناً لأن هذا الثوب ليس هو المكان المناسب الذي يحط عليه الذباب أما غيره من الثياب المدنسة فتعد الذبابة أهون ما حط عليه من الأوساخ والأدناس

(١) الحديث أخرجه الترمذي : ٥/ ١٠٥ ، والآية في سورة المطففين : (١٤) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٨٢) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سورة الأحزاب : آية (٣٢) .

التي تراكمت عليه لذلك لا يستنكر الناس ذلك لإنقطاع دهشتهم من خلال تراكم مخالفاته ويبدو أن هذا ما يريده الله عز وجل من المثالي من خلقه وإليك النصوص .

أولاً : قال تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (١).

ثانياً : جعل الله عز وجل عذاب الأمة إذا زنت نصف عذاب الحرة قال تعالى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٢).

ثالثاً : الثلاثة الذين خلفوا فإن النبيﷺ أمر بمقاطعتهم وهجرهم دون غيرهم من الذين خلفوا والذين بلغ عددهم أكثر من ثمانين وقال تعالى عنهم﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... إلى آخر الآية﴾ (٣).

٣- زاد المثالي :

يفتقر السالك لطريق المثالية إلى تحقيق أركانها ، والتي يمكن القول بأن رسول الله ﷺ قد حددها في وصيته لأبي ذر – رضي الله عنه – بقوله : اتقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلقٍ حسن(٤).

أ- التقوى : ويعد ترك الذنوب أخص خصائصها . والأخطاء والذنوب أمر حتم لا يخلو من ارتكابها إنسان وهذا ما أخبر عنهﷺ بقوله : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون(٥). وهي تعني : إحداث شرخ في العلاقة بين الخالق والمخلوق وتتسع أبعاد هذا الشرخ في حالة ما إذا كانت الخطيئة من الكبائر في حين تضيق أبعادها عندما يكون الذنب صغيراً .

وهناك وجهة نظر أخرى يتبناها أهل التصوف تشير إلى وجوب استعظام كل الذنوب حيث قالوا : لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

ومعنى ذلك أن علاقتك مع صديقك غالباً ما تبنى على المباسطة وإزالة الحواجز والتسامح على الأخطاء التي تصدر من كل واحد منهما بإتجاه الآخر كإن ، تدفعه بيدك أو تلاطفه بلسانك أو غير ذلك فلا يبنى عليها شيء في حين إذا عملت نفس هذه التصرفات مع زميلك فإن أقل ما يبنى عليها هو غضبه عليك ونفرته منك هذا إذا لم تتصادم معه أو تتشابك أيديكما . أما إذا صدرت هذه التصرفات منك بإتجاه أستاذك فسوف ينبني عليها معاقبتك بالفصل من الكلية أو المدرسة . أما إذا تصرفت ذلك مع أحد الوزراء الذي صدر مرسوم جمهوري أو ملكي بتنصيبه

(١) سورة الأحزاب : آية (٣٠) .

(٢) سورة النساء : آية (٢٥) .

(٣) سورة التوبة : آية (١١٨) .

(٤) أخرجه الترمذي عارضة الأحوذي : ٨/ ١٥٥ وقال حديث حسن صحيح .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/ ١٩٨ ، سنن ابن ماجه : ٢/ ١٢٢٠ .

فلا تقل عقوبتها عن إيداعك الحبس . في حين إذا ما كانت تصرفاتك هذه مع رئيس الدولة فستكون العقوبة أقسى وقد تصل إلى الإعدام لا سيما في دولنا العربية .

فكيف إذا ما كانت تلك التصرفات المسيئة مع من صدر مرسوم رباني بتنصيبه رسولاً ؟

وكيف إذا ما كانت المعاصي والمخالفات لأوامر رب الأرباب وملك الملوك ومن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (١).

ومما تجدر الإشارة إليه فإن الذنوب قد سماها الشرع (قاذورات) قالﷺ : من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله(٢).

ومعلوم أن القاذورات تبعدك عن أقرب الناس إليك فكيف لا تبعدك عن الملك القدوس ؟ إذ تحدث بينك وبينه هوة التجافي إلى أن تقوم بشحذ همتك لإصلاح علاقتك بربك من خلال تطهرك منها بترك الذنوب والتشبث بأسباب التوبة والإنابة .

ب- إتباع السيئة الحسنة : الحسنات منها ما هو فرض يثاب على فعله ويعاقب على تركه . وهو بمثابة رأس المال بالنسبة للطاعات التي لا بد من تحققيها لأنها تعد القاعدة التي ينطلق المثالي منها .

ومنها ما هو نوافل وسنن : يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها وهي الربح الذي يبني المثالي صرحه المرد ويرتكز أساسه على قاعدة الفرائض ، وهو أيضاً بضاعة المثالي ولازمه إذا ما انطلق في سلم المثالية يدل على ما ذكرنا حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ...(٣). ومن الجدير بالذكر أن السالكين لطريق المثالية يتفاوتون في تشميرهم وجدية سعيهم في الترقي في السلم من خلال مسارعتهم بالطاعات وقوة مناعتهم إذا ما طرقت المعاصي أبواب شهواتهم ونوازعهم .

ج- الخلق الحسن : وهو هيئة راسخة في النفس تحمله على فعل الطاعات وتزجره على فعل المعاصي . ويكتسب الإنسان هذه الهيئة بعد أن يقيد نوازعه بقيود إجتماعية أو دينية أو بكليهما ، وصحيح أن أعظمها أثراً تلك التي ترافق الإنسان منذ نعومة أظفاره لكنه يتأثر في كل مراحل حياته حتى إذا فرضت هذه القيود سلطانها

(١) سورة الزمر : آية (٦٧) .

(٢) جزء من حديث في موطأ الإمام مالك : ٢/ ٨٢٥ .

(٣) صحيح البخاري : ٧/ ١٩٠ .

عليه وطافت تصرفاته في فلكها وأتمرت بأوامرها وتقيدت بقيودها حتى تصل نفسه إلى المرحلة التطويعية التامة التي لا تقوى على التخلي عنها وهي التي ينبغي أن يكون المثالي عليها بعد أن وضع نفسه في بودقة الإسلام وتقولب بقالب أحكامه وتزين ظاهره بزينة فضائله ونقش سلوكه بمحاسن أخلاقه وتزخرفت تصرفاته بحسن شمائله .

ولا يخفى أن مكانة الأخلاق في الإسلام عالية بل إنها البر كله كما في حديث النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس(١).

المبحث الثالث

التوازن بين المثالية والواقعية في الإسلام ونواقض المثالية

وسنطرق هنا باب موضوعين هما :-

١- التوازن بين المثالية والواقعية :

إن مثل المثالية والواقعية كمثل السماء والأرض فواقع الإنسان على الأرض أن يأكل ويشرب ويتزوج ويبيع ويشتري ويحب ويكره ويلد ويولد وينام ويعمل ويتعب ويرتاح ، ولا يكاد يمكنه التخلي عن واقع إنسانيته وما يحتاج إليه من ضروريات لابد من تحققها لتدوم حياته وتستقيم أموره . في نفس الوقت تتطلع روح الإنسان إلى التسامي والإرتفاع لتتخلص من أدران الماديات وإلقاء جلبابها عن الكاهل والتشوف إلى غيث العفو والتوبة النازل من نور رحمة الخالق إلى مخلوقيه قال تعالى﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٢). ذلك التطلع الذي بمجرد انفتاح أبوابه إلى العقل الإنساني نرى صاحبة يميل إلى التخلي عن ما حوله من الماديات وعن واقعه وإلى التفرغ التام للمثالية والإندفاع بإتجاهها كإندفاع المخلوقات نحو بصيص الضوء اللامع بعدما أرخى الليل البهيم سدوله. وكيف لا والسلوك في طرق المثالية يملأ كل الفراغات في النفس الإنسانية التي سببها الأسى والألم والندم والحرمان وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الإحساس لا يقتصر على عامة الناس بل ظهر ذلك من الصفوة المصطفاة من الرسل فهذا النبي موسى عليه السلام بعد أن كلمه الله تعالى تاقت نفسه إلى رؤيته فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (٣).

وعندما جاء الإسلام ببودقته الربانية الروحانية حث الأفراد على سلوك طريق المثالية من خلال بيان فضائلها لكنه وضع في طريقهم يافطة كبيرة لترشدهم إلى دالة ضرورية لابد أن يستصحبها في مسيرته المثالية مفادها – ألا مناص من النظر إلى الواقع والتقيد به – لأن إهمال الواقع وعدم التقيد به يعني الإنحراف في التفكير وهو ما يؤدي إلى عدم قطف ثمار المثالية قال تعالى﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (٤). ونشير هنا

(١) صحيح مسلم : ٨/ ٧ .

(٢) سورة الشرح : آية (٢و٣) .

(٣) سورة الأعراف : آية (١٤٣) .

(٤) سورة القصص : آية (٧٧) .

إلى أن سلوك طريق المثالية لا يعني ترك الدنيا بأسرها والتفرغ للعبادة فقط ذلك لأن أعمال الإنسان الواقعية الدنيوية إذا ما كانت مقيدة بأحكام الإسلام وكان مقصود الملتزم بها رضاء الله عز وجل فإنها تعد عبادة تقربه إلى الله تعالى وتبقيه سائراً في طريق المثالية وإليك جانباً من ذلك:

أ- الأكل والشرب : قال تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١). فواقع الإنسان يحتم عليه الأكل والشرب وإن الإمتناع عنها دائماً يؤدي إلى الهلاك ومن يفعل ذلك فهو غير واقعي . كما أن الإسراف والنهمة إلى الأكل والشرب يخل بسلوك المثالي لذلك أمر الله تعالى بالأكل والشرب ونهى عن الإسراف فما بين طريقي الأمر والنهي يكون طريق المثالي الذي يأكل ويشرب بنية التقوي للعبادة وبتوازن أقره ﷺ بقوله : بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابة وثلث لنفسه(٢).

ب- الإنفاق في سبيل الله : أمرنا الله تعالى﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٣). وهذا تشجيع للإفراد نحو المثالية وإلا فإن حب الإنسان للمال هو من واقع غريزته الذي أخبر عنه تعالى بقوله ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (٤). فإذا ما أراد المثالي نسيان الواقع بإنفاق كل ماله فقد نهاه الشرع عن ذلك وطلب منه السير بين الواقعية والمثالية التي تراعي الواقع قال تعالى ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (٥).

٣- نواقض المثالية :

لكي يتكامل عقد لؤلؤ المثالية لابد من بيان الهفوات والفجوات التي يمكن أن يتسلل منها (الفايروس) الذي قد يتسبب بفرط ذلك العقد وهدم ذلك الصرح لكي يتنبه إليه المثالي والتي يمكن إجمالها بما يأتي :

١- الجهل :

يعد الجهل رأس هذه النواقض لتعدد المجالات التي يتحقق فيها ، وهو من العوارض التي تنقص أهلية الأشخاص لترتب الثواب والعقاب على أفعالهم لكون الجاهل لا يحسن التصرف والسلوك بل قد يوقع الضرر بنفسه حتى قيل : الجاهل عدو نفسه ، وقال الشاعر :

لا يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

(١) سورة الأعراف : آية (٣١) .

(٢) سنن الترمذي : ١٥/ ٢٣ .

(٣) سورة البقرة : آية (١٩٥) .

(٤) سورة الفجر : آية (٢٠) .

(٥) سورة الإسراء : آية (٢٩) .

٢- المعاصي :

لا يخفى أن الله عز وجل المعبود الحق قد أولانا بالنعم والرحمات لذلك فرميه بالمعاصي والذنوب ومخالفة أوامره يعد كفراً بنعمه وجهلاً بعظمته وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ (١).

لذا فهذه المعاصي تنقض غزل المثالي لأنها تحجبه عن الله عز وجل .

٣- الغلو والتقصير :

شق الله تعالى لعباده طريقاً عبادياً مستقيماً واضحاً ارتضاه منهم فقال﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٢).

ودل عباده عليه بما غرس في نفوسهم وبما أنزل من الكتب وما أرسل من الرسل ، ولكي لا تزل الأقدام عن هذا الصراط فقد حذر السائرين في هذا الطريق من الإشتطاط عنه والإنحدار في هوة الإفراط أو السقوط في شرك التقصير واللتان قد يدهما مفاهيم الأشخاص في مسيرتهم فيتحقق :

أ- الغلو : وهو التجاوز عن الخط المرسوم في الشرع وقد نهى عنه تعالى بقوله ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ﴾ (٣). فالإنسان قد تتعالى وبنية حسنة طموحاته المثالية وتنطلق به مجرداً عن كل القيود لا سيما الشرعية التي هي أصل مسيرته المثالية فيخرج بذلك من دائرة الشرع التي يفترض أن يتصرف بحدودها ، وطبعاً هذا من غير قصدٍ منه ، عند ذلك يكون قد تجاوز الغلاف الغازي فانقطع عنه الأوكسجين الذي لا تستقيم حياته إلا به ، قال تعالى﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (٤). فهذا كانت غايته التربع فوق عرش المثالية لكن بغلوه تردى إلى أسفل سلمها ، هذا إذا لم يكن قد خرج من قاعدتها والعياذ بالله .

ب- التقصير : وهو التفريط بالطاعات سواء المفروضة منها والتي هي أساس وقاعدة المثالية أو النوافل والسنن والأذكار التي هي سنن المثالية كما ذكرنا .

وكلا الحالتين كفيل بإخراج من سلك طريقها من وصف المثالية التي تقع وسطاً بينهما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (٥). فالمثالية الوسطية ضرورة يجب المحافظة عليها لكي لا تنقض عراها .

---

(١) سورة النساء : آية (١٧) .

(٢) سورة الأنعام : آية (١٥٣) .

(٣) سورة المائدة : آية (٧٧) .

(٤) سورة الأنعام : آية (١٢٥) .

(٥) سورة البقرة : آية (١٤٣) .

الفصل الثاني

تطبيقات للمثالية في الفقه العبادي الحنفي

وسنأتي إلى مظان تواجد المثالية فيه حيث أن منه ما يجول في خلد الإنسان ومنه ما يتم إظهاره في أعمال وتصرفات الأشخاص لذلك سنقسم هذا الفصل إلى مبحثين :-

المبحث الأول

المثالية المعنوية

وتقتصر هذه على بيان المبررات العقلية التي تساهم في إقناع الأشخاص بموجبات العبادات والتي هي قاعدة المثالية وسبب تشريعها ومن ثم وجوب الإكتساء بثوبها والإلتزام بها طاعة لله تعالى .

وبيان ذلك في النقاط الآتية :

١- الطهارة :

وتعني : النظافة والتطهير ويعني التنظيف : إثبات النظافة في المحل وإنها صفة تحدث ساعة فساعة وإنما يمتنع حدوثها بوجود ضدها وهو القذر فإذا زال القذر وامتنع حدوثه بإزالة العين القذرة تحدث النظافة ، فكان زوال القذر من باب زوال المانع من حدوث الطهارة لا أن يكون طهارة ، وإنما سمي طهارة توسعاً لحدوث الطهارة عند زواله(١). ولا يخفى فإن القذارة نقيض المثالية . إذاً المثالية تعني الطهارة المعنوية والمادية بنوعيها أي طهارة الحدث والتي تسمى (طهارة حكمية) وكذلك طهارة الخبث والتي تسمى طهارة حقيقية(٢). قالﷺ من توضأ وذكر اسم الله عليه كان طهوراً لجميع بدنه ، ومن توضأ ولم يذكر اسم الله كان طهوراً لأعضاء وضوئه(٣).

٢- الصلاة :

جاء في المدرسة الحنفية المبررات العقلية التي فرضت فيها الصلاة وذلك من وجوه(٤):-

أ- إن هذه الصلوات إنما وجبت شكراً للنعم منها نعمة الخلقة حيث فضل الجوهر الإنسي بالتصوير على أحسن صورة وأحسن تقويم كما قال تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (٥). وقال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تَقْوِيمٍ﴾ (٦). حتى لا ترى أحداً يتمنى أن يكون على غير هذا التقويم والصورة التي أُنشئَ عليها . ومنها نعمة

(١) بدائع الصنائع : ١/ ٣ .

(٢) بدائع الصنائع : ١/ ٣ .

(٣) فيض القدير للمناوي : ٦/ ٥٥٧ .

(٤) بدائع الصنائع : ٩١/١ .

(٥) سورة غافر : آية (٦٤) .

(٦) سورة التين : آية (٤) .

سلامة الجوارح عن الآفات إذ بها يقدر على إقامة مصالحه أعطاه الله ذلك كله إنعاماً محضاً من غير أن يسبق منه ما يوجب استحقاق شيء من ذلك فأمر باستعمال هذه النعمة في خدمة المنعم شكراً لما أنعم إذ شكر النعمة استعمالها في خدمة المنعم .

ب- الصلاة تجمع استعمال جميع الجوارح الظاهرة من القيام والركوع والسجود والقعود ووضع اليد مواضعها وحفظ العين ، وكذا الجوارح الباطنة من شغل القلب بالنية وإشعاره بالخوف والرجاء وإحضار الذهن والعقل بالتعظيم والتبجيل ليكون عمل كل عضو شكراً لما أنعم عليه في ذلك . ومنها نعمة المفاصل اللينة والجوارح المنقادة التي بها يقدر على استعمالها في الأحوال المختلفة من القيام والقعود والركوع والسجود والصلاة تشتمل على هذه الأحوال فأمرنا باستعمال هذه النعم الخاصة في هذه الأحوال في خدمة المنعم شكراً لهذه النعمة وشكر النعمة فرض عقلاً وشرعاً .

ج- إن الصلاة وكل عبادة خدمة الرب جل جلاله وخدمة المولى على العبد لا تكون إلا فرضاً إذ التبرع من العبد على مولاه محال والعزيمة هي شغل جميع الأوقات بالعبادات بقدر الإمكان وانتفاء الحرج إلا أن الله تعالى بفضله وكرمه جعل لعبده أن يترك الخدمة في بعض الأوقات رخصةً حتى لو شرع لم يكن له الترك لأنه إذا شرع فقد اختار له العزيمة وترك الرخصة فيعود حكم العزيمة يدل على ما ذكرنا : أن العبد لابد له من إظهار سمة العبودية ليخالف به من استعصى مولاه وأظهر الترفع عن العبادة ، وفي الصلاة إظهار سمة العبودية لما فيها من القيام بين يدي المولى جل جلاله وتحنية الظهر له وتعفير الوجه بالأرض والجثو على الركبتين والثناء عليه والمدح له .

د- إنها مانعة للمصلي من ارتكاب المعاصي لأنه إذا قام بين يدي ربه خاشعاً متذلالاً مستشعراً هيبة الرب جل جلاله خائفاً تقصيره في عبادته كل يوم خمس مرات عصمه ذلك عن اقتحام المعاصي ، والإمتناع عن المعصية فرضٌ وذلك قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١). وقوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢).

هـ- إنها جعلت مكفرة للذنوب والخطايا والزلات والتقصير إذ العبد في أوقات ليله ونهاره لا يخلو عن ذنبٍ أو خطأٍ أو زلةٍ أو تقصير في العبادة ، والقيام بشكر النعمة إذ قد سبق إليه من الله تعالى من النعم والإحسان ما لو أخذ بشكر ذلك لم يقدر على أداء شكر واحدة منها فضلاً عن أن يؤدي شكر الكل فيحتاج إلى تكفير ذلك إذ هو فرضٌ ففرضت الصَلوَاتُ الخمس تكفيراً لذلك .

---

(١) سورة هود : آية (١١٤) .

(٢) سورة العنكبوت : آية (٤٥) .

٣- الزكاة :

وسأُتحف القارئ الكريم بالقول المثالي الذي يخاطب النفس الإنسانية لكي تتقبل وتقتنع بفرضية زكاة المال الذي تحبه حباً جماً وذلك من ثلاثة أوجه(١).

أ- إن أداء الزكاة من باب إعانة الضعيف وإغاثة اللهيف وإقدار العاجز وتقويته على أداء ما افترض الله عز وجل عليه من التوحيد والعبادات والوسيلة إلى أداء الفروض مفروضٌ .

ب- إن الزكاة تطهر نفس المؤدي من أنجاس الذنوب وتزكي أخلاقه بتخلق الجود والكرم وترك الشح والضن إذ الأنفس مجبولة على الضن بالمال فتتعود السماحة وترتاض لأداء الأمانات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها وقد تضمن ذلك كله قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (٢).

ج- إن الله تعالى قد أنعم على الأغنياء وفضلهم بصنوف النعمة والأموال الفاضلة عن الحوائج الأصلية وخصهم بها فيتنعمون ويستمتعون بلذيذ العيش ، وشكر النعمة فرضٌ عقلاً وشرعاً ، وأداء الزكاة إلى الفقير من باب شكر النعمة فكان فرضاً .

٤- الصوم :

لا يخفى أن الصيام أحد أركان الإسلام ومن المبررات المثالية لإستساغة مشاقه وتحمل معاناته ما يأتي :

أ- إن الصوم وسيلة إلى شكر النعمة إذ هو كف النفس عن الأكل والشرب والجماع وإنها من أجل النعم وأعلاها، والإمتناع عنها زماناً معتبراً يعرف قدرها لأن النعم مجهولة فإذا فقدت عرف قدرها وهذا يحمل الإنسان على أداء حقها بالشكر وإليه أشار تعالى في آخر آيات الصيام بقوله﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣).

ب- إنه وسيلة إلى التقوى لأنه إذا انقادت نفسه للإمتناع عن الحلال طمعاً في مرضاة الله تعالى وخوفاً من أليم عقابه فأولى أن تنقاد للإمتناع عن الحرام فكان الصوم سبباً للإتقاء عن محارم الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى في أول آيات الصوم﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٤).

ج- فيه سكون النفس الأمارة وكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح من العين واللسان والأذن والفرج فإن به تضعف حركتها في محسوساتها ولذا قيل : إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء وإذا شبعت

---

(١) بدائع الصنائع : ٢/ ٣ .

(٢) سورة التوبة : آية (١٠٣) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٨٥) .

(٤) بدائع الصنائع : ٢/ ٧٥ – ٧٦ ، والآية في سورة البقرة : آية (١٨٣) .

جاعت كلها . وما عن هذا صفاء القلب من الكدر فإن الموجب لكدوراته فضول اللسان والعين وباقيها وبصفائه تناط المصالح والدرجات .

د- كون الصيام موجباً للرحمة والعطف على المساكين فإنه لما ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ذكر في هذا حاله في عموم الأوقات فتسارع إليه الرقة عليه ، والرحمة حقيقتها في حق الإنسان نوع ألم باطن فيسارع بدفعه عنه بالإحسان إليه فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء .

هـ- ومنها موافقة الفقراء بتحمل ما يتحملون أحياناً وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى كما حكي عن بشر الحافي أنه دخل عليه رجل في الشتاء فوجده جالساً يرعد وثوبه معلق على المشجب فقال له : في مثل هذا الوقت ينزع الثوب أو معناه فقال : يا أخي الفقراء كثير وليس لي مواساتهم بالثياب فأواسيهم بتحمل البرد كما يتحملون(١).

٥- الحج :

هو القصد إلى معظمٍ والمعظم منه ما هو مادي وهو بيت الله الحرام ومنه ما هو معنوي ويتلخص ذلك بأحد أمرين:

أ- إظهار العبودية لأن في ذلك إظهار التذلل للمعبود وفي الحج ذلك لأن الحاج في حال إحرامه يظهر الشعث ويرفض أسباب التزين والإرتفاق ويتصور بصورة عبد سخط عليه مولاه فيتعرض بسوء حاله لعطف مولاه ومرحمته إياه، وفي حال وقوفه بعرفة بمنزلة عبدٍ عصى مولاه فوقف بين يديه متضرعاً حامداً له مثنياً عليه مستغفراً لزلاته مستقيلاً لعثراته، وبالطواف حول البيت يلازم المكان المنسوب إلى ربه بمنزلة عبدٍ معتكفٍ على باب مولاه لائذٌ بجنابه.

ب- شكر النعمة ، لأن العبادات بعضها بدنية وبعضها مالية والحج عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن فكان فيه شكراً لنعمتين وشكر النعمة ليس إلا استعمالها في طاعة المنعم كما إن شكر النعمة واجب .

المبحث الثاني
المثالية العملية

وهنا سنأتي بمسائل فقهية عملية تجعلنا نجول في الفقه العبادي للمدرسة الحنفية لنتعرف على آراء فقهائها، ليظهر لنا من خلال ذلك سلم المثالية في المندوب من الأعمال ، وكذلك قاعدتها في المفروض من الأعمال ، وذلك في المسائل الآتية :-

المسألة الأولى : ستر العورة .

لاشك أن انكشاف العورة يقدح بالمثالية سواء أكانت إجتماعية أم عبادية مع انها في الأصل سواء لأن الإسلام دين الفطرة ، ومما فطر الله الناس عليه هو ستر العورة . لأن معناها النقص وقد قيل للسوأة عورة لقبح النظر

(١) شرح فتح القدير : ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

إليها(١). روى المسور بن مخرمة قال : أقبلت بحجر أحمله ثقيلٌ وعلي إزار خفيف ، قال : فانحل إزاري ومعي الحجر لم أستطع أن أضعه حتى بلغت به إلى موضعه فقال رسول الله ﷺ : إرجع إلى ثوبك فخذه ولا تتمشوا عراةً(٢). ويحتل الستر جزءاً كبيراً وحيزاً واسعاً من ثوب المثالية ولذلك جعلت شرطاً لصحة الصلاة بالإجماع لأنه إذا كان الستر فرضاً كان الإنكشاف مانعاً جواز الصلاة ضرورة واستدلوا(٣):-

١- بقوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٤).

فقيل – الزينة ما يواري العورة والمسجد الصلاة فقد أُمر بمواراة العورة في الصلاة(٥).

٢- حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : لا تقبل صلاة الحائض إلا بخمار(٦).

فكنى بالحائض عن البالغة لأن الحيضَ دليل البلوغ فأراد به البلوغ لملازمةٍ بينهما .

٣- لأن ستر العورة حال القيام بين يدي الله تعالى من باب التعظيم له .

هذا وقد اتفق الفقهاء على أن قليل الإنكشاف لا يمنع جواز الصلاة لما فيه من الضرورة لأن الثياب لا تخلو عن قليل خرقٍ عادةً . كما اتفقوا على أن كثير الإنكشاف من العورة يمنع جواز الصلاة لعدم الضرورة . لكنهم اختلفوا في الحد الفاصل بين القليل والكثير إلى مذهبين في المدرسة الحنفية :

المذهب الأول : إن الكثير من العضو يقدر بالربع وما فوقه وما دون الربع قليل وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومحمد واستدلا(٧).

بأن الشرع أقام الربع مقام الكل في كثير من المواضع كما في حلق الرأس في حق المحرم ليحل من إحرامه ومسح ربع الرأس كذا ههنا لأن الموضع موضع الإحتياط .

المذهب الثاني : إن الأكثر من النصف هو الكثير وما دون النصف هو القليل . وإلى هذا ذهب أبو يوسف لكن اختلفت الرواية عنه في النصف فجعله في حكم القليل في الجامع الصغير وفي حكم الكثير في الأصل . واستدل(٨).

---

(١) المصباح المنير : ٤/ ٨٨ ، حاشية قليوبي : ١/ ١٧٦ .

(٢) صحيح مسلم : ١/ ٢٦٨ رقم ٣٤١ .

(٣) بدائع الصنائع : ١/ ١١٦ ، شرح فتح القدير : ١/ ٢٢٤ ، الفتاوى الهندية : ١/ ٥٨ .

(٤) سورة الأعراف : آية (٣١) .

(٥) حاشية المولى المحقق سعد الله على شرح العناية : ١/ ١٩١ .

(٦) سنن الترمذي : ١/ ٢٣٤ وحسنه .

(٧) بدائع الصنائع : ١/ ١١٧ ، شرح العناية على الهداية : ١/ ٢٢٦ ، الفتاوى الهندية : ١/ ٥٨ .

(٨) أنظر المصادر السابقة ، نفس الإشارة .

بأن القليل والكثير من المتقابلات فإن ما تظهر بالمقابلة فما كان مقابله أقل منه فهو كثير وما كان مقابله أكثر منه فهو قليل .

وأجيب : بأن القليل والكثير من أسماء المقابلة فإن ما يعرف ذلك بمقابله ، وإن الشرع قد جعل الربع كثيراً في نفسه من غير مقابلة في بعض المواضع فلزم الأخذ به في موضع الإحتياط(١).

وما نرجحه هو المذهب الأول لدليله المعقول وإجابته المنطقية .

إذا تبين هذا فإن انكشاف العورة ينقسم تبعاً للحالة إلى :

١- انكشاف في حالة القدرة على الستر : وهو ما إذا كان قادراً على ستر العورة لكنه غُلِبَ فانكشفت . فإن عامة الأحناف يرون أن كثير الانكشاف يستوي فيه العضو الواحد والأعضاء المتفرقة حتى لو انكشف من أعضاء المتفرقة ما لو جمع لكان كثيراً يمنع جواز الصلاة ويستوي فيه العورة الغليظة وهي: القبل والدبر. والخفيفة: كالفخذ ونحوه. وذكر الإمام محمد بن الحسن ما يدل على ذلك في امرأة صلت فانكشف شيءٌ من شعرها وشيءٌ من ظهرها وشيءٌ من فرجها وشيءٌ من فخذها أنه إن كان بحالٍ لو جُمع بلغ الربع منع أداء الصلاة وإن لم يبلغ لا يمنع.

فالملاحظ أنه جمع بين العورة الغليظة والخفيفة واعتبر فيها الربع فثبت أن حكمها لا يختلف وأن الخلاف فيهما واحد .

لكن ذهب البعض إلى تقدير العورة الغليظة بالدرهم تغليظاً لأمرها(٢).

فأجيب : بأن هذا غير سديد لأن العورة الغليظة كلها لا تزيد على الدرهم فتقديرها بالدرهم يكون تخفيفاً لأمرها لا تغليظاً له فتنعكس القضية(٣).

٢- انكشاف العورة في حالة العجز عن سترها . فإن هذا الانكشاف لا يمنع جواز الصلاة للضرورة كمن حضرته الصلاة وهو عريان لا يجد ثوباً(٤).

بقي أن نذكر حكم صلاة العريان إذا كان معه ثوب نجس وهذا لا يخلو : إما أن يكون الربع منه طاهراً وإما أن يكون كله نجساً . فإن كان ربعه طاهراً لم يجزه أن يصلي عرياناً بل يجب عليه أن يصلي في ذلك الثوب لأن الربع فما فوقه في حكم الكمال كما في مسح الرأس وحلق المحرم ربع الرأس.

وإن كان كله نجساً أو الطاهر منه أقل من الربع فقد اختلف فيه الأحناف(٥):-

---

(١) بدائع الصنائع : ١/ ١١٧ ، شرح العناية : ١/ ٢٢٦ .

(٢) الفتاوى الهندية : ١/ ٥٨ .

(٣) بدائع الصنائع : ١/ ١١٧ ، شرح فتح القدير : ١/ ٢٢٧ .

(٤) بدائع الصنائع : ١/ ١١٧ .

(٥) أنظر التفصيل في بدائع الصنائع : ١/ ١١٧ .

١- ذهب أبو حنيفة وأبو يوسف إلى أنه بالخيار إن شاء صلى عرياناً وإن شاء مع الثوب لكن الصلاة في الثوب أفضل .

٢- وقال محمد بن الحسن : لا تُجزِؤُه إلا مع الثوب ، ذلك لأن ترك استعمال النجاسة فرض وستر العورة فرضٌ إلا أن ستر العورة أهمهما وآكدهما لأنه فرضٌ في الأحوال أجمع وفرضية ترك استعمال النجاسة مقصورة على حالة الصلاة فيصار إلى الأهم فتستر العورة ولا تجوز الصلاة بدونه ويتحمل استعمال النجاسة ، ولأنه لو صلى عرياناً كان تاركاً فرائض منها : ستر العورة ، والقيام والركوع والسجود ، ولو صلى في الثوب النجس كان تاركاً فرضاً واحداً وهو ترك استعمال النجاسة فقط فكان هذا الجانب أهون وقد قالت عائشة – رضي الله عنها – ما خير النبيﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما(١).

فمن ابتلي ببليتين فعليه أن يختار أهونهما .

وأجيب : بأن الجانبين في الفرضية في حق الصلاة على السواء ألا ترى انه كما لا تجوز الصلاة حالة الإختيار عرياناً لا تجوز مع الثوب المملوء نجاسة ولا يمكن إقامة أحد الفرضين في هذه الحالة إلا بترك الأخر فسقطت فرضيتهما في حق الصلاة فيخير فيجزؤه كيفما فعل إلا أن الصلاة في الثوب أفضل(٢).

المسألة الثانية : التسمية في ابتداء الوضوء .

وقد اختلف الفقهاء في صيغة الأفضل فيها : فقيل : الأفضل بسم الله العظيم والحمد لله على دين الإسلام . وقيل الأفضل بسم الله الرحمن الرحيم وقيل : لو قال : لا إله إلا الله أو الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله يصير مقيماً للسنة(٣).

كما اختلف الفقهاء في حكم التسمية في ابتداء الوضوء إلى مذهبين :-

المذهب الأول : أنها سنة في بداية الوضوء وبهذا قال الأحناف واستدلوا(٤):-

١- ما روي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول اللهﷺ قال : من توضأ وذكر اسم الله عليه كان طهوراً لجميع بدنه ، ومن توضأ ولم يذكر اسم الله كان طهوراً لأعضاء وضوئه(٥).

٢- إن آية الوضوء مطلقة عن شرط التسمية فلا تقيد إلا بدليل صالح للتقييد .

٣- لأن المطلوب من التوضئ هو الطهارة وترك التسمية لا يقدح فيها لأن الماء خلق طهوراً في الأصل فلا تقف طهوريته على صنع العبد .

---

(١) صحيح البخاري : ٨/ ١٦ ، مسلم : ٧/ ٨٠ .

(٢) بدائع الصنائع : الإشارة السابقة .

(٣) شرح فتح القدير : ١/ ١٩ .

(٤) بدائع الصنائع : ١/ ٢٠ ، شرح فتح القدير : ١/ ١٩ ، الفتاوى الهندية : ١/ ٦ .

(٥) فيض القدير : ٦/ ٥٥٧ .

٤- قوله ﷺ : كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر(١).

فهذا الحديث يدل على أن ترك اسم الله يقطع البركة وهذا يدل على مندوبية ذكر اسم الله تعالى في بداية الوضوء.

المذهب الثاني : ذهب الإمام مالك إلى أن التسمية فرضٌ إلا إذا كان ناسياً فتقام التسمية في القلب مقام التسمية باللسان دفعاً للحرج واحتج(٢):-

بما روي عن النبيﷺ أنه قال : لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله(٣).

وأجيب : بأن هذا الحديث من جملة الآحاد ولا يجوز تقييد مطلق الكتاب لخبر الآحاد ثم هو محمول على نفي الكمال وهو معنى السنة كقول النبيﷺ : لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد(٤). وبه نقول أنه سنة لمواظبة النبيﷺ : عليها عند افتتاح الوضو ء وذلك دليل السنية(٥).

والذي نرجحه هو المذهب الأول لما استدلوا به لأنه يلامس المثالية ويدفع نحو الدرجات العلا في سلمها المبارك. والله أعلم .

المسألة الثالثة : التثليث في الوضوء.

وهو أن يغسل أعضاء الوضوء ثلاثاً ثلاثاً وهو سنة في المدرسة الحنفية واستدلوا(٦):

١- عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة وقال هذا وظيفة الوضوء الذي لا تحل الصلاة إلا به ثم توضأ مرتين مرتين وقال هذا وضوء من أراد أن يضاعف له الأجر مرتين ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي فمن زاد على هذا أو نقص فقد تعدى وظلم(٧).

وفي رواية : فمن زاد أو نقص فهو من المعتدين(٨).

هذا وقد اختلفوا في تأويل الزيادة والنقص(٩).

فقال بعضهم : زاد على مواضع الوضوء ونقص عن مواضعه .

---

(١) مسند أحمد : ٢/ ٣٥٩ ، سنن ابن ماجه : ١/ ٦١٠ .

(٢) بدائع الصنائع : ١/ ٢٠ .

(٣) سنن ابن ماجه : ١/ ١٤٠ ، سنن الترمذي : ١/ ٢٠ .

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم : ١/ ٢٤٦ .

(٥) بدائع الصنائع : ١/ ٢٠ ، الفتاوى الهندية : ١/ ٦ .

(٦) بدائع الصنائع : ١/ ٢٢ ، الفتاوى الهندية : ١/ ٧ ، شرح فتح القدير : ١/ ٢٩ .

(٧) مسند أبي داود للطيالسي : ص٢٦٠ .

(٨) نصب الراية للزيلعي : ١/ ٨٢ وقال غريب بجميع هذا اللفظ .

(٩) بدائع الصنائع : ١/ ٢٢ .

وقال بعضهم : زاد على ثلاث مرات ولم ينوِ ابتداء الوضوء ونقص عن الواحدة .

وقال الكاساني : والصحيح أنه محمول على الاعتقاد دون نفس الفعل معناه : فمن زاد على الثلاث أو نقص عن الثلاث بأن لم ير الثلاث سنة رسول الله ﷺ سنة فقد ابتدع فيلحقه الوعيد حتى لو زاد على الثلاث أو نقص ورآى الثلاث سنة لا يلحقه هذا الوعيد لأن الزيادة على الثلاث من باب الوضوء على الوضوء إذ نوى به وإنه نور على لسان رسول الله ﷺ وكذا جعل رسول الله ﷺ الوضوء مرتين سبباً لتضعيف الثواب فكان المراد منه الإعتقاد لا نفس الزيادة والنقصان(١).

المسألة الرابعة : الزكاة في مال المجنون .

حيث نجد في هذه المسألة تطبيقاً لقاعدة المثالية وسلمها إذ تنص المدرسة الحنفية على أن الجنون نوعان(٢) :-

نوعان(٢) :-

١- جنون أصلي : وهو أن يبلغ مجنوناً وهذا لا خلاف بين الأحناف في أنه يمنع انعقاد الحول على النصاب حتى لا يجب عليه أداء زكاة ما مضى من الأحوال قبل الإفاقة وإنما يعتبر ابتداء الحول من وقت الإفاقة لأنه الآن صار أهلاً لأن ينعقد الحول على ماله كالصبي إذا بلغ أنه لا يجب عليه أداء زكاة ما مضى من زمان الصبى وإنما يعتبر ابتداء الحول على ماله من وقت البلوغ كذا هذا . ولهذا منع وجوب الصلاة والصوم فكذا الزكاة .

٢- جنون طارئ فإنه ينظر هنا إن دام سنة كاملة فهو في حكم الأصلي لأنه لا صوم عليه كذلك لا زكاة عليه لأن السنة في الزكاة كالشهر في الصوم والجنون المستوعب للشهر يمنع وجوب الصوم فالمستوعب للسنة يمنع وجوب الزكاة ، وهو يمنع وجوب الصلاة والحج فكذلك الزكاة .

وإن كان في بعض السنة ثم أفاق ففيه عن الإمام محمد بن الحسن روايتان(٣) :-

أ- أنه إن أفاق في شيء من السنة وإن كان ساعة من الحول من أوله أو وسطه أو آخره تجب زكاة ذلك الحول ، ووافقه على ذلك الإمام أبو يوسف كما روى ابن سماعة .

ووجه هذه الرواية : هو اعتبار الزكاة بالصوم وهو اعتبار صحيح لأن السنة للزكاة كالشهر للصوم والإفاقة في جزءٍ من الشهر يكفي لوجوب صوم الشهر فكذلك الإفاقة في جزءٍ من السنة تكفي لإنعقاد الحول على المال .

ب- إنه إن أفاق أكثر السنة وجبت وإلا فلا .

---

(١) له بدائع الصنائع : ١/ ٢٢ .

(٢) بدائع الصنائع : ٢/ ٥ ، شرح فتح القدير : ٢/ ١١٦ .

(٣) بدائع الصنائع : ٢/ ٥-٦ ، شرح فتح القدير : ٢/ ١١٧ .

ووجه هذه الرواية أنه إذا كان في أكثر السنة مفيقاً فكأنه كان مفيقاً في جميع السنة لأن للأكثر حكم الكل في كثير من الأحكام خصوصاً فيما يحتاط فيه .

ففي المواطن التي أوجبوا عليه الصوم فيها فلأن تركها يقدح بقاعدة المثالية أما في المواطن التي لم يوجبوا عليه الصوم فإن الصوم يعد من سلم المثالية

المسألة الخامسة : أكل الصائم إذا شك في طلوع الفجر .

وفيه حالات :-

١- المستحب للصائم إذا شك في طلوع الفجر أن لا يأكل . روى أبو يوسف عن أبي حنيفة أنه قال : إذا شك في الفجر فأحب إلي أن يدع الأكل لأنه يحتمل أن الفجر قد طلع فيكون الأكل إفساداً للصوم فيتحرز عنه(١).

والأصل فيه ما روى الحسن بن علي – رضي الله عنهما – قال : حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك(٢).

٢- لو أكل وهو شاك لا يحكم عليه بوجوب القضاء لأن فساد الصوم مشكوك فيه لوقوع الشك في طلوع الفجر والأصل بقاء الليل فلا يثبت النهار بالشك(٣).

٣- هل يكره الأكل مع الشك ؟ هناك خلاف عند الأحناف إلى ثلاثة أقوال(٤):

الأول : نعم يكره له ذلك وهذا مروي عن أبي يوسف وعن أبي حنيفة أيضاً حيث قال : أنه إذا شك فلا يأكل وإن أكل فقد أساء واستدلوا :

بما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملكٍ حمى ألا إن حمى الله محارمه(٥).

الثاني : لا يكره له الأكل مع الشك وبهذا قال الإمام محمد لكني لم أجد له دليلاً ويبدو أنه قد حمله على الإباحة لأنه لا يحكم عليه بوجوب القضاء فلا مبرر لكراهة الأكل .

ثالثاً: هو ما قاله الفقيه أبو جعفر الهندواني : أنه لو ظهر على إمارة الطلوع من ضرب الدبداب والأذان يكره وإلا فلا.

وأجاب الكاساني عن ذلك بقوله : ولا تعويل على ذلك لأنه مما يتقدم ويتأخر(٦).

---

(١) بدائع الصنائع : ٢/ ١٠٥ ، شرح فتح القدير : ٢/ ٢٩٢ .

(٢) سنن الترمذي : ٤/ ٧٧ .

(٣) بدائع الصنائع : ٢/ ١٠٥ ، شرح فتح القدير : ٢/ ٢٩١ .

(٤) بدائع الصنائع : ٢/ ١٠٥ ، شرح فتح القدير : ٢/ ٢٩٢ .

(٥) جزء من حديث في البخاري : ١/ ١٩ ، ومسلم واللفظ له : ٥/ ٥١ .

(٦) المصدر السابق : نفس الإشارة ، شرح فتح القدير : ٢/ ٢٩٢ .

ويعني بذلك أن المؤذن ومن يضرب بالطبل أو غيره قد يتأخر في التبليغ فلا نعول عليهما في الإستدلال على طلوع الفجر وعدمه .

ويبدو لي أن الثاني هو الراجح لأن الكراهة في المذهب الحنفي عند إطلاقها تعني التحريم ولا ينبغي تحميله الإثم على أمرٍ لم يتيقن مخالفته فيه ، وأما الأدلة التي استدلوا بها فلا تدل على التحريم بل تدل على الحث على الورع الذي هو : ترك ما لا بأس به مخافة أن يكون به بأس .

٤- حكم من تسحر وأكبر رأيه أن الفجر طالع وهذا فيه روايتان عند الأحناف(١):

الأولى : أنه يقضي . وهذا ما رواه الحسن عن أبي حنيفة . ووجه ذلك :

أن غالب الرأي دليل واجب العمل به بل هو في حق وجوب العمل في الأحكام بمنزلة اليقين .

الثانية : أنه لا يقضي . وبهذا قال الإمام محمد وصححه القدوري ووجه ذلك :

لأنه على يقين من الليل فلا يبطل إلا بيقين مثله .

ويبدو لي أن الأول هو الراجح لأن أكبر الرأي عند الإنسان أي هو الذي ترجح عنده فعندما خالف الراجح عنده وأكل فإنه يتحمل تبعات المخالفة والقضاء ضرب من ذلك فيجب عليه والله أعلم .

المسألة السادسة : هل يجب الحج على الفور أم على التراخي ؟

هناك خلاف في المدرسة الحنفية(٢).

١- يجب على الفور وهو قول أبي يوسف ورواية عن أبي حنيفة وإليه ذهب الكرخي وذكر: أنه يأثم للتأخير عن أول أوقات الإمكان وهي السنة عند استجماع شرائط الوجوب وستأتي أدلته عند إجابته على أدلة المذهب الآخر.

٢- يجب على التراخي وهو مذهب الإمام محمد ورواية عن الإمام أبي حنيفة و به قال الإمام الشافعي واستدلوا:

أ- إن الله تعالى فرض الحج في وقت مطلقاً لأن قوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (٣). مطلقاً عن الوقت ثم بين وقت الحج بقوله عز وجل ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ (٤). أي وقت الحج أشهر معلومات وصار المفروض هو الحج في اشهر الحج مطلقاً من العمر فتقييده بالفور تقييد المطلق ولا يجوز إلا بدليل .

وأجيب : بأن الأمر بالحج في وقته مطلقٌ يحتمل الفور ويحتمل التراخي ، والحمل على الفور أحوط لأنه إذا حمل عليه يأتي بالفعل على الفور ظاهراً خوفاً من الإثم بالتأخير ، فإن أريد به الفور فقد أتى بما أُمر به وإن أريد

(١) بدائع الصنائع : ٢/ ١٠٥ ، شرح فتح القدير : ٢/ ٢٩٢ .

(٢) راجع التفصيل في البدائع : ٢/ ١١٩ – ١٢٠ .

(٣) سورة آل عمران : آية (٩٧) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٩٧) .

به التراخي لا يضره الفعل على الفور بل ينفعه لمسارعته إلى الخير فكان الحمل على الفور حملاً على أحوط الوجهين وكان أولى .

ب- ما روي أن رسول الله ﷺ حج في سنة عشر من الهجرة وفتح مكة كان سنة ثمان ولو كان وجوبه على الفور لما احتمل التأخير منه ولكان أداؤه فيما بعد قاضياً لا مؤدياً لأن الفور قد فات وقته .

وأجيب : بأن تأخير رسول الله ﷺ الحج عن أول أوقات الإمكان فقد قيل أنه كان لعذرٍ له ولا كلام في حال العذر وهو يدل على أنه لا خلاف في أن التعجيل أفضل والرسول ﷺ لا يترك الأفضل إلا لعذر .

ومن هذا العرض يبدو لي رجحان المذهب الأول لما استدلوا به ولأنه مذهب عامة الأحناف ، قال الكاساني : وأما طريق عامة المشايخ فإن للحج وقتاً معيناً من السنة يفوت عن تلك السنة بفوات ذلك الوقت فلو أخره عن السنة الأولى وقد يعيش إلى السنة الثانية وقد لا يعيش فكان التأخير عن السنة الأولى تفويتاً له للحال لأنه لا يمكنه الأداء للحال إلى أن يجيء وقت الحج من السنة الثانية وفي إدراكه السنة الثانية شكٌ فلا يرتفع الفوات الثابت للحال بالشك والتفويت حرام(١).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم الرسالات وآله وصحبه أجمعين ... وبعد .

فإن لكل رحلة نهاية تصل إليها وبعد أن وصلت سفينة رحلتنا عند مرسى نهايتها سأذكر بعضاً من الثمار التي جنيتها في هذه الجولة وكما يأتي :

١- إن الفقهاء القدامى لم يبنوا صرح الفقه الإسلامي على هيكل النظريات بل تتبعوا الجزئيات لوضع الحكم الشرعي لكل واحدة منها ، لكن المحدثين منهم استخدموا هذا المصطلح ووضعوا له ضوابط خاصة به فحاولت السير على خطاهم أملاً في التجديد ومسايرةً لمستجدات العصر لنثبت أن الفقه الإسلامي تدور أحكامه مع تطور الأزمنة واختلاف الأمكنة مهما تطاولت القرون عن بدء نشأته لكن من دون الخروج عن ثوابته وأصوله .

٢- عند تصفح لما كتبه الفقهاء المسلمون لم أجدهم استخدموا مصطلح المثالية لذا يل يضعوا له تعريفاً خاصاً به لذلك حاولت استخدام هذا المصطلح ووضعت له تعريفاً .

٣- إن كل مسلمٍ عندما يرتدي ثوب الدين تطبيقاً والتزاماً فإنه يروم الوصول إلى قمة الفضيلة والمثالية ، لكنه قبل الوصول إليها لابد أن يتدرج في السلم الخاص بها لذلك بينتُ قاعدة المثالية ومراتبها وسلمها .

٤- لا يخفى أن أمام كل غاية عقبات لذلك بينت العوائق التي قد تعترض طريق المسلم وهو يسلك طريق المثالية لكي يتجنبها ولا يتردى في غيابت جبها .

---

(١) له البدائع : ٢/ ١١٩ .

٥- لكي تقترن النظرية في التطبيق لذلك تطرقت إلى تطبيقات المثالية بنوعيها المعنوية والعملية حيث تجسد من خلالها قاعدة المثالية وسلمها .

وأخيراً أقول هذا اجتهادي الذي هُديتُ إليه فإن كان صواباً فمن الله تعالى فله الحمد والمنة وإن كان غير ذلك فأستغفر الله عز وجل لكن أطمعُ أن أحظى بالأجرين للإصابة أو الأجر الواحد للخطأ .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادر

١- القرآن الكريم .

٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين الكاساني (ت٥٨٧هـ) دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ط٢ – ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

٣- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر بيروت .

٤- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان – ط٢ – ١٤٠٣هـ – دار الفكر – بيروت .

٥- شرح العناية على الهداية ، للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (ت٧٨٦هـ) ، مطبوع بهامش شرح فتح القدير – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٦- شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٧- صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستنبول – ١٤٠١هـ – دار الفكر – بيروت .

٨- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ) – دار الفكر – بيروت .

٩- عارضة الأحوذي ، بشرح جامع الترمذي : أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت١٣٥٣هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت .

١٠- الفتاوى الهندية ، للعلامة الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ، دار الفكر – ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

١١- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، محمد بن عبد الرؤوف المناوي ، تحقيق : أحمد عبد السلام – ط١ – ١٤١٥هـ – دار الكتب العلمية – بيروت .

١٢- لسان العرب : ابن منظور ، دار الفكر – بيروت .

١٣- مدخل إلى الفلسفة ، د. حسن عبد الحميد ، مكتب سعيد رأفت / جامعة عين شمس – ١٩٨٣م .

١٤- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ) ، تحقيق : د. يوسف المرعشلي – دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٦هـ .

١٥- مسند أبي داود الطيالسي (ت٢٠٤هـ) ، دار الحديث – بيروت .

١٦- مسند أحمد ، للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ، دار صادر – بيروت .

١٧- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١٨- مقدمة في الفلسفة العامة ، د. يحيى هويدي ، دار الثقافة والنشر والتوزيع – ط٩ .

١٩- الموطأ ، للإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) ، ط١ – ١٤٠٦هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٠- نصب الراية تخريج أحاديث الهداية، للإمام جمال الدين بن عبد الله بن يوسف الزيلعي، دار الحديث – القاهرة.

٢١- النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية: د. أحمد فهمي بهنسي، مطبعة دار التأليف بمصر – ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .